المجلة اللاهوتية المصرية ٤ (٢٠١٧): ٧٤–٨٥
http://journal.etsc.org

المسيح وحده

مايكل باركر Michael Parker* (mike.parker@etsc.org)
كلية اللاهوت الإنجيلية في القاهرة

سنحتفل عن قريب بمرور خمسمائة سنة على بدء الإصلاح، ومع ذلك فالحقائق الأساسية للإصلاح لا تزال تُناقَش وغالبًا ما تكون غير مفهومة فهمًا جيدًا. وإذا سألت أمريكيًا عما يجب عليه القيام به لينال الخلاص، سيكون رده: "عِش حياة أخلاقية صالحة وسوف يقبلك الله في السماء عندما تموت." أمّا المصلحون (أي لوثر، و كالڤن وغيرهما) فجادلوا بأننا نخلص بالمسيح وحده (Solus Christus). نحن لسنا بحاجة إلى الاعتماد على أعمالنا الصالحة، أو وساطة الكهنة أو القديسين أو أسرار الكنيسة.

إلا أن البشر على مر التاريخ لم يشعروا بارتياح تجاه عقيدة "المسيح وحده". فنحن جميعًا نريد أن نضيف شيئًا لما قام به المسيح بالفعل مسبقًا؛ عملاً صالحًا، طقسًا دينيًا. وهذا ما يجعلنا نشعر بالرضى عن أنفسنا لأننا حينئذٍ نكون مسيطرين على الموقف. وقد أصر المسيحيون القدماء من خلفية يهودية على أن الشخص لابُدَّ أن يتهود لينال الخلاص. وأصر الكاثوليك في العصور الوسطى على أن شفاعة القديسين، ووساطة الكهنة، وتعاون المسيحيين مع عمل المسيح ضروري للخلاص. أمَّا الناس في العصر الحديث فيميلون إلى الاكتفاء بالقول إن الحياة الأخلاقية الصالحة هي حقًا كل ما يريده الله، زاعمين أنْ الله **محبة**، وبالتالي لن يرفض أحدًا. وعنوان كتاب روب بِل Rob Bell "انتصار الحب" *Love Wins* يدل على هذا الرأي دلالة واضحة: في النهاية لن يُرْفَض أحد لأن محبة الله لن تسمح بذلك. وبالتالي سوف نخلص جميعًا.

* ترجمة سامح رهيف، ، تحرير لغوي ماريانا كتكوت.

Originally published as: Michael Parker, "Solus Christus," *Cairo Journal of Theology* 4 (2017): 22–34, http://journal.etsc.org.

إلا أن تعاليم الكتاب المقدس تتعارض، بالطبع، مع كل هذه الأفكار. فالكتاب المقدس يصر على عقيدة أصبحت اليوم "عتيقة الطراز"، ويمكن تلخيصها في كلمة واحدة: الحصرية.

وفي التعاليم التقليدية للمصلحين، كانت عقيدة المسيح وحده تُعَبّر عن هذه الحقيقة الأساسية: تم خلاصنا تمامًا بيسوع الذي دفع دين خطايانا على الصليب. وقبل موته مباشرةً على الصليب قال: "قدأكمل." ومن ثَمَّ، لسنا مضطرين إلى إضافة أي شيء إلى عمله. بل لا يمكننا إضافة أي شيء. واجبنا ببساطة هو استقبال عطية النعمة المجانية التي هي الخلاص في يسوع المسيح. "أَجَابَ يَسُوعُ: «الْعَمَلُ الَّذِي يَطْلُبُهُ اللهُ هُوَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِمَنْ أَرْسَلَهُ»" (يوحنا ٦: ٢٩).

وقد علَّم چون كالڤن أن هذه العقيدة تحررنا تحريرًا مذهلاً. فمجرد قبولنا المسيح ربًا ومخلصًا وحصولنا على عطية الخلاص المجانية بالنعمة، لا نعد بحاجة إلى القلق بشأن خلاصنا. ليس لدينا ما يدعو إلى القلق على فقده. ليس لدينا ما يدعو إلى القلق على القيام بالمزيد من الأعمال الصالحة لضمان الخلاص. يمكننا ببساطة أنْ نستريح في المسيح، ونترك روحه يعمل فينا لنحيا في تلك الأعمال الحسنة التي سبق وأعدّها لنا. كما قال بولس الرسول في أفسس: "لِأَنَّنَا نَحْنُ عَمَلُهُ، مَخْلُوقِينَ فِي ٱلْمَسِيحِ يَسُوعَ لِأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، قَدْ سَبَقَ ٱللهُ فَأَعَدَّهَا لِكَيْ نَسْلُكَ فِيهَا." (أفسس ٢: ١٠)

قضية النسبية

كانت المسألة في زمن الإصلاح تدور حول ما إذا كان عمل المسيح على الصليب أنجز خلاصنا تمامًا. وعقيدة المسيح وحده تجيب على هذا السؤال من ناحية المسيحيين البروتستانت. لكنَّ سؤالاً آخر قد أثير في عصرنا وهو مرتبط أيضا ارتباطًا وثيقًا بعقيدة المسيح وحده، وهو الاعتقاد السائد اليوم في النسبية الدينية.

لقد قلنا: "إذا سألت أمريكيًا عما يجب عليه القيام به لينال الخلاص، سيكون رده: "عِش حياة أخلاقية جيدة وسوف يقبلك الله في السماء عندما تموت." وفي السنوات الأخيرة، يضيف العديدون إلى هذا القول ما يلي: "ولا يهم إذا كنت مسيحيًا، أو مسلمًا، أو بوذيًا، أو هندوسيًا."

نحن نعيش في عالم يرتفع فيه صوت العقل البشري على كل ما عداه: الكتاب المقدس، والتقاليد، والسلطات اللاهوتية. يمكن تعريف العقل البشري تعريفًا عمليًا بأنه: "كل ما يراه الشخص منطقيًا بالبديهة." أمَّا قولنا إننا نخلص بالمسيح وحده (Solus Christus) فهو ببساطة غير مقبول عند الناس اليوم لأنه يتنافى مع ما يعتقدونه صحيحًا بالبديهة. فنحن نعيش في عالم تعددي تنتشر فيه العديد من الديانات المختلفة. وفي عالم كهذا، من الصعب (أو على الأقل من غير المريح) الإصرار على المزاعم الحصرية عن المسيح.

أما الإصرار على أن العقل البشري هو الحَكَم النهائي لِما هو الحق فقد ورثناه من عصر التنوير. والادعاء بأن جميع الأديان جميلة وصحيحة يرجع إلى ويليام بليك William Blake الذي كتب في عام ١٧٩٥ كتاب «جميع الأديان واحد» *All Religions Are One*. ويقول ستيفن پروثيرو Stephen Prothero في كتابه «الله ليس واحدًا» *God Is Not One* (٢٠١٠) إن هذا ادعاء غريب جدًا. فقد كتب پروثيرو، أستاذ الأديان في جامعة بوسطن، ما يلي:

> لا أحد يقول بأن النظم الاقتصادية أو الأنظمة السياسية المختلفة كلها واحد. فمن الواضح أنْ الرأسمالية والاشتراكية متعارضتان تمامًا إلى درجة تجعل اختلافاتهما غنية عن التعريف. وهو ما ينطبق أيضًا على الديمقراطية والملكية. ومع ذلك ما زال الأكاديميون يدعون بأن ديانات متنافسة مثل الهندوسية والإسلام واليهودية والمسيحية هي –بشكل خيالي معجزي- في جوهرها واحد.[1]

والفيلسوف الديني هيوستن سميث Huston Smith في كتابه "أديان العالم" *World's Religions* (١٩٥٨) يقدم لنا تشبيهًا شائعًا يوضح كيف تؤدي الديانات في العالم إلى نفس الوجهة. فهو يشبهها بمسارات مختلفة تصل إلى نفس الجبل. أي أن هناك العديد من الطرق التي يمكن للمرء أن يسلكها، ولكنها جميعًا تؤدي إلى قمة الجبل في النهاية. يكتب سميث:

> عند سفح [الجبل]، أي عند سفوح جبال اللاهوت، تكون الطقوس والهياكل التنظيمية والأديان متميزة بعضها عن البعض. وكذلك الفروق في الثقافة، والتاريخ، والجغرافيا، والمزاج الجمعي كلها تسبب اختلافًا في نقطة الانطلاق.... ولكن وراء هذه الاختلافات، يلوح الهدف نفسه.[2]

1 Prothero, *All Religions Are One* (New York: Harper One, 2010), 1

2 Ibid.

ويكتب بروثيرو إن هذا الرأي الذي ورثناه عن عصر التنوير، كان من المفترض أن يؤدي إلى التسامح الديني، "وكان سيجعلنا أحسن حالا بلا شك." هؤلاء الذين يزعمون أن جميع الآلهة واحد، وأن جميع الأديان هي في الأساس واحد، تحدوهم دوافع جيدة. إنهم يريدون وضع حد لما يقع من صراع وعنف وحرب بدافع الدين.

ومع ذلك، فإن هذا كلَّه مُجرَّد أمنية. وهو عدم احترام لأديان العالم حين لا نأخذ أفكارها المتفردة على محمل الجد. وهذا أمر خطير لأن الأفكار تترتب عليها عواقب، في الدنيا والآخرة على حد سواء.

دعونا ننظر في القضايا بمزيد من العناية. ماهو العيب الذي يراه الناس في عقيدة المسيح وحده؟ سألخصُ ذلك في ثلاث نقاط.

(١) من العجرفة أن نقول إن دينًا واحدًا لديه ادعاء حصري بامتلاك الحق. فالجماعات تميل إلى وضع بعضها البعض في أنماط أو قوالب محددة، مما يجعل الحوار مستحيلاً. وهذا ما يؤدي إلى العنف والحروب الدينية. وهو ما سبب الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش. وهو ما يسبب الإرهاب الديني اليوم. فعندما تُفَجّر انتحارية نفسها والآخرين في مكتب أو ملهى ليلي، يمكن أن نكون على يقين من أن الانتحاري استلهم عمله هذا من مبدأ ديني تكفيري. هذا هو نوع التفكير الذي يؤدي إلى "صراع الحضارات"، ويُسفِر عن صراعات لا تنتهي، بل قد يُنْتِج حربًا عالمية في يوم من الأيام. لذلك يقول العالم: دعونا نرفض ادّعاءات الدين الحصرية بامتلاك الحق، على اعتبار أن الأديان تشكل خطورة وتسبب انقسامات؛ مِمّا يؤدي إلى الفتنة.

وإن الادّعاءات الحصرية للدين هي التي أدت في السنوات الأخيرة إلى ظهور الملحدين الجدد، أو "المستنيرين" *Brights* كما يسمّيهم البعض بسبب وصمة العار المرتبطة بالإلحاد. ومن هؤلاء الكُتَّاب: ريتشارد دوكينز Richard Dawkins، وكريستوفر هيتشنز Christopher Hitchens، وغيرهما. ويقال إنهم قد ظهروا لثلاثة أسباب: (١) زيادة المهاجرين المسلمين في أوروبا، والتهديد الذي يشكلونه على الحياة المدنية في الغرب. (٢) صعود اليمين المسيحي في الولايات المتحدة، مع تركيزه على قضايا خلافية مثل الإجهاض. (٣) تصاعد العنف المُستوحى من الإسلام في العالم، لاسيَّما الهجوم

على مركز التجارة العالمي في نيويورك في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١.[٣]

وبسبب هذه الأفكار الثلاث، تُعتَبر الحصرية الدينية أكبرَ خطر يهدد عالمنا اليوم. ولكن هناك مفارقة ساخرة في حالة من يدعون أن الحصرية الدينية تؤدي إلى التعصب وفي نهاية المطاف إلى الفتنة والحرب. ففي القرن العشرين أصبحت البلدان التي سعت إلى قمع الدين من بين أكثر الأنظمة المتعصبة والقمعية في التاريخ. ويؤكد أليستر ماجراث Alister McGrath هذه النقطة لافتًا النظر إلى روسيا الشيوعية، والصين الشيوعية، والخمير الحمر في كمبوديا، وألمانيا النازية كأمثلة لأمم رفضت الله بشكل صريح وسعت لإضفاء "صفة التنزيه والتسامي" "transcendalize" على شيء آخر، فكانت النتيجة قتل الملايين من شعوبها.[٤]

قيل إن القرن العشرين أنتج شهداء مسيحيين أكثر من كل القرون السابقة مجتمعة. إلَّا أنَّ هذه الجرائم الموجهة ضد الإنسانية لم يرتكبها المتدينون بدافع التعصب ضد الآخرين. بل ارتكبها الملحدون الذين أرادوا القضاء على الدين من أجل فرض رؤاهم العلمانية على العالم.

وعلى الرغم من هذا التفكير الرغبوي عند النسبيين، ليس صحيحًا أن جميع الأديان تصلح بالتساوي أنْ تكون طرقًا إلى الله وأنها في جوهرها تعلّم نفس الشيء. والشخص الذي ينادي بهذا ربما يعتبر نفسه مستنيرًا، ويعتبر أن منكري هذه الحقيقة متعصبون دينيًا ويشكلون خطرًا في عالمنا المعاصر الآخذ في الانكماش. ولكن هذا الموقف لا يصمد أمام الفحص والتمحيص.

فلا يسعنا القول إن جميع الأديان على قدم المساواة طرق تؤدي إلى الله، لاسيَّما أنْ بعض الأديان، مثل البوذية، لا تؤمن حتى بوجود إله شخصي. كما لا يسعنا القول إن جميع الأديان تأخذنا إلى نفس الوجهة،خصوصًا وأن فهم البوذيين لتلك الوجهة يختلف تمامًا عن فهم المسيحيين لها.

3 Ibid., 320.

4 Alister McGrath, *The Dawkins Delusion? Atheist Fundamentalism and the Denial of the Divine* (Downers Grove, Il: InterVarsity Press, 2007), 81 cited in Timothy Keller *The Reason for God: Belief in an Age of Skepticism* (New York: Dutton, 2008), 53.

يعتقد البوذي أنَّ وجهته هي السقوط مثل قطرة ماء في محيط كبير من الروح فيُمتص ويتلاشى كفرد فريد من نوعه. وهو ما يختلف كثيرًا عن المسيحي الذين يعتقد أن له هوية فريدة من نوعها ستتأكد وتكتمل في عصر جديد يلبس فيه جسدًا مُقامًا. فلا يسعنا القول ببساطة إن وجهتي النظر صحيحتان أو سليمتان جزئيًا. ولكن إن كانت إحداهما صحيحة، فالأخرى خاطئة. ولن يقودنا الدليل والمنطق البسيط إلى أي استنتاج آخر.

أنا أعلم أنّه ليس مقبولاً في أيامنا هذه أن نقول إن أي دين باطل. وأنا أشعر بقوة هذا الموقف. لذا نود أن نقول بدلا من ذلك إن الله قد سبقنا وتغلغل في جميع الثقافات والأديان. وبالتالي يمكن أن نجدَ-على الأقل- بعض نور الحق فيها، أي جسرًا من التفاهم يمكن لنا أنْ نلتقي عليه. وهذا ما أعتقده أنا أيضًا، وهذا ما ينير تفكيري كمسيحي وأنا أواجه تلك الديانات الأخرى. إن يوم تكفير الأديان الأخرى قد فات منذ عهد بعيد.

لكن هذا لا يعني أننا قضينا على التمييز بين الحق والباطل. إنَّ عبادة مولك، التي تأمر بتقديم أضاحي من الأطفال، ليس خاطئة وباطلة دينيًا فحسب، بل هي شريرة وشيطانية. وإذا عجزنا عن قول ذلك، نكون قد ابتعدنا جدًّا عن بوصلتنا الأخلاقية، وأصبحنا عرضة لخطر القول بأن الخير شر، والشر خير. إنه عمل يتعارض تمامًا مع الإخلاص لأنفسنا، ناهيك عن الإخلاص لحق الإنجيل.

(٢) كثيرًا ما يؤكد النسبيون الدينيون على أن جميع الأديان صحيحة جزئيًا، وليس هناك دين صحيح تمامًا لأننا جميعًا لا نرى إلَّا جزءًا من الكل.

وفقًا لهذا الرأي، كل الأديان هي في جوهرها واحد- أي أنها جميعا تعلم نفس الحقائق الأساسية، التي إذا اتبعناها، حسّنا حالة العالم وذهبنا إلى السماء. أمَّا الحقائق التي يقصدونها فهي في الواقع حقائق أخلاقية. جميع الأديان، كما يُقال، تعلّم أشكالا مختلفة من "القاعدة الذهبية" وجميعنا تعلمنا أن نحترم الغير. إنها جميعًا تعلمنا الابتعاد عن الكذب، والغش، والسرقة، والقتل.

علاوة على ذلك، فإن الاختلافات اللاهوتية بين الأديان سطحية في جوهرها وغير مهمة في نهاية المطاف (ما يدعوه هيوستن سميث سفح الجبل). إنّما ما يهم فقط هو أنْ نعيش حياة صالحة (ما يدعوه سميث قمة الجبل).

كثيرًا ما يتم توضيح هذه النقطة بقصة مستوحاة من الهند منذ عدة قرون. إنها قصة رجالٍ عمي يفحصون فيلاً. يتحسّس رجل أعمى خرطوم الفيل ويقول:

"هذا المخلوق طويل ومرن مثل الثعبان." يتحسّس رجل أعمى آخر أحد أرجل الفيل ويقول: "لا، هذا المخلوق سميك ومستدير مثل جذع الشجرة." ويتحسّس رجل أعمى ثالث جانب الفيل ويقول: "كلاكما على خطأ. هذا المخلوقُ كبير ومسطح."

مغزى القصة هو أن كل رجل أعمى يشبه واحدًا من أديان العالم. فكلٌّ منها يفهم بدقة جزءًا من الحقيقة، ولكن لا يقدر واحد منها على فهم الحقيقة كاملة. ولذا يتظاهر الراوي بأنه شخص متواضع يقول بأن الحق الديني أكبر بكثير مِمّا يمكن لأي شخص أو أي دين أن يدركه تمامًا.

أمَّا المغالطة في هذه القصة فهي أنها تُروى من وجهة نظر شخص ليس أعمى، شخص يمكنه أن يرى الفيل بأكمله. فكيف يمكن للراوي أنْ يعرف أن أحدًا من العميان لم يدرك الفيل كله إلا إذا كان قادرًا على رؤية الفيل بأكمله. لذلك فالراوي يتظاهر بالتواضع فقط.

فهو في الواقع يدعي بغطرسة أنّه يملك معرفة دينية متفوقة على جميع الأديان في العالم. إنَّه يدعي أن موقفه يسمح له بإدراك الفيل بصورة تجعل كل ادعاءات الأديان في العالم نسبية. إلَّا أنّه لا يوجد إنسان يملك هذا الموقف المتميز. فنحن محدودون بنفس الأدوات. ويجب علينا جميعًا أن نعتمد على الخبرة وشهادة الشهود والتاريخ والحجة والبصيرة الشخصية. إن الراوي يقول إنّه لا يجوز لدين أنْ يدعي معرفة متفوقة للحق في الوقت الذي يدعي فيه هو نفسه أنه لديه مثل هذه المعرفة. فهو إما منافق أو مخدوع.

(٣) إن القول بأن دينًا واحدًا هو الصحيح وبقية أديان العالم باطلة هو إدانة للجزء الأكبر من سكان العالم ويجعل من الله طاغية لا يرحم.

كَتَبَتْ لي شابة من رواندا منذ بضع سنوات تسأل هذا السؤال، وقالت: إن كان المسيح هو الطريق الوحيد إلى السماء، فماذا سيحدث لجميع أجدادي الذين عاشوا في القرون التي سبقت مجيء المبشرين المسيحيين ليخبرونا بالمسيح؟ هذا سؤال وجيه، بل سؤال صعب.

قبل أن يصعد المسيح إلى السماء، أسَّسَ الكنيسة واستأمنها على مهمة تلمذة الأمم (مت ٢٨: ١٩)، وفي ليتورجية الكنيسة الأولى التي يسجلها الرسول بولس في ١ كورنثوس ١١: ٢٣-٢٦، من الواضح أن الكنيسة عليها أنْ "تُخْبِر بِمَوْتِ ٱلرَّبِّ إِلَى أَنْ يَجِيءَ"، أي أنّه على الكنيسة الاستمرار في التعليم والوعظ

والشهادة للحق حتى يعود المسيح. وهذا الحق يشمل رسالة أنْ الخلاص هو في المسيح وحده.

في عالمنا التعددي، فيما بعد الحداثة، صار من الصعب توفيق ادّعاءات المسيح الحصرية مع شموليةِ الله. ومع ذلك، كما يقول لسلي نيوبيجين Lesslie Newbigin في كتاب "السر المكشوف" *The Open Secret*، مبدأ الاختيار يؤكد أنْ الله اختار العمل من خلال شعب معين (بني إسرائيل)، وأن يمثله شخص واحد (يسوع) أسمى تثميل، وأن يكون دين واحد (المسيحية) هو الموكَّل على الحق الإلهي. إلا أن هذا لا ينبغي أن يكون مصدر فخر واعتزاز للمسيحيين حيث إنْ الاختيار لا يعطي حامله أي وضع مميز، وهذه نقطة أكَّدها الأنبياء مرارًا وتكرارًا.[٥]

ويجب على المسيحيين رفض مذهب عالمية الخلاص universalism الذي يبني حجته على أساس محبةِ الله كي يصل إلى استنتاج مفاده أنّ كل العالم سيخلص. هذا الموقف لا يتفق مع الكتاب المقدس الذي يعطي مجالاً لحرية الاختيار، ويمنح البشر الحرية حتى في رفضِ الله. أما بخصوص أتباع الديانات الأخرى، فيجب على المسيحيين أن يحذروا من التطرف إلى نقيضين، إما تشويه صورتهم بالكامل على أنّهم على باطل أو اعتبار كل الفوارق الدينية نسبية. إن التشويه الكامل لا يتفق مع الكتاب المقدس الذي يؤكد أن الله خلق الأمم، وَحَدَّدَ لَهُمُ الأَوْقَاتَ وَالأَمَاكِنَ (أعمال ١٧: ٢٦) ولم يتركهم "بلا شاهد" (أعمال ١٤: ١٧).

وعلى حد تعبير Newbigin، النور يضيء في الظلمة، وهو يستنتج من ذلك أن هناك فرقًا واضحًا بين الظلمة والنور، ولكن أيضا أنّه لا يوجد جزء من الظلمة إلَّا وفيه بعض النور على الأقل. في الواقع، هذه حجة تثبت وجود "شاهد جدير بالاحترام."

ويسوع يشير ضمنًا إلى أنّه ليس من حق المسيحيين تخمين مصير أتباع الديانات الأخرى. فعندما سئل يسوع: "يَا سَيِّدُ، أَقَلِيلٌ هُمُ ٱلَّذِينَ يَخْلُصُونَ؟" أجاب: "اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق" (لوقا ١٣: ٢٣-٣٤). وهو ما

5 Lesslie Newbigin, *The Open Secret: An Introduction to the Theology of Mission,* Revised Edition (Grand Rapids, MI: William B. Eerdmans Publishing Company, [1978] 1995), 66-91.

يعني أن يسوع لا يريدنا أن نتكهن بمصير الآخرين. ولكن الخلاص هو سؤال موجهة لكل واحد منا على حِدَة.

إلا أن جهل المسيحيين بمصير غير المؤمنين لا ينبغي أن يكون ذريعة لإنكار المزاعم الحصرية بخصوص الخلاص بالمسيح وحده، أو اعتناق مذهب عالمية الخلاص. ولكن ينبغي لهذا الجهل أن يمنحنا النشاط لبذل المزيد من الجهود الكرازية.

الكتاب المقدس والنسبية الدينية

ماذا يقول الكتاب المقدس في موضوع النسبية أو التعددية الدينية؟ بات العديد من المسيحيين يقبلون النسبية الدينية في السنوات الأخيرة قبولاً جزئيا لأنهم ببساطة، على ما أعتقد، يعكسون اتجاهًا في الثقافة العامة. لكن من الواضح أنَّ الكثيرين قد قبلوها لأنهم يعتقدون أن إله الكتاب المقدس إله شمولي في جوهره. ألم يحتضن يسوع المنبوذين دينيًا في عصره؟ ألم يحتضن الخطاة سيئي السمعة، مثل العاهرات والعشارين؟

إلَّا أنّ القول بأن الله شمولي في جوهره ليس كافيًا لتبرير النسبية. فقد غفر يسوع لامرأة ارتكبت الزنا (يوحنا ٨)، لكنه لم يقل: "فالآن اذهبي وافعلي ما تريدين." بل قال: "اذهبي ولا تخطئي أيضًا." وأوصى من يريد أن يتبعه أن يحسب النفقة أوّلاً، لأن هناك نفقة، أو ثمنًا. وعلى حد تعبير ديتريش بونهوفر Dietrich Bonhoeffer، النعمة مجانية ولكنها ليست رخيصة. فهي تستلزم التوبة، وتستلزم حمل الصليب. إنها تستلزم ألاَّ ننادي يسوع بالفم: "يا رب، يا رب" فقط (مت ٧: ٢١)، بل أن نتبعه فعلاً بصفته ربًّا.

يقول بعض المسيحيين واهمين إن الكتاب المقدس يعلمنا أننا جميعًا أولادُ الله، وهو دليل على النسبية. ولكن هذا ببساطة ليس تعليمًا كتابيًا. بل كما أوضح إنجيل يوحنا، يسوع جاء إلى العالم كي يكون للذين يتبعونه **الحق في أن يصيروا** أولاد الله. فنحن لسنا بطبيعتنا أولاد الله، ولكن المسيحيون المؤمنون هم أبناءُ الله بالتبني.

وقد قال يسوع عددًا من المزاعم الحصرية المحورية أثناء خدمته الأرضية سَجَّلَتها الأناجيل: "أنا والآب واحد" (يوحنا ١٠: ٣٠)، "أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي"(يوحنا ١٤: ١٦)، وأضاف "الذي رآني

فقد رأى الآب" (يوحنا ١٤: ٩). وينعكس تعليم يسوع حول هذا الموضوع في مقاطع أخرى من العهد الجديد أيضًا. فلوقا يردد هذا الفكر في سفر أعمال الرسل ٤: ١٢: "لَيْسَ بِأَحَدٍ غَيْرِهِ ٱلْخَلَاصُ. لِأَنْ لَيْسَ ٱسْمٌ آخَرُ تَحْتَ ٱلسَّمَاءِ، قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ، بِهِ يَنْبَغِي أَنْ نَخْلُصَ." ويخبرنا بولس في ١ تيموثاوس ٢: ٥: "لِأَنَّهُ يُوجَدُ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَوَسِيطٌ وَاحِدٌ بَيْنَ ٱللهِ وَٱلنَّاسِ: ٱلْإِنْسَانُ يَسُوعُ ٱلْمَسِيحُ."

ويذكر سي إس لويس C. S. Lewis في كتابه "المسيحية المجردة" *Mere Christianity* نقطة هامة حول مقاطع العهد الجديد التي يؤكد فيها يسوع لاهوته:

> إن الإنسان الذي كان مجرد إنسان وقال أشياء من نوع الأشياء التي قالها يسوع لا يكون معلمًا أخلاقيًا عظيمًا، بل هو إما مجنون - على مستوى الرجل الذي يقول إنه بيضة مسلوقة - أو الشيطان ذات نفسه. ويجب عليك الاختيار: إما أنْ هذا الإنسان كان، ولا يزال، ابن الله.... أو أنّه مجنون أو ما هو أسوأ. يمكنك إسكاته باعتباره معتوهًا، ويمكنك البصق في وجهه وقتله باعتباره شيطانًا، أو يمكنك أن تركع على ركبتيك وتدعوه ربًا وإلهًا. ولكن دعونا لا نتفضّل عليه بأي هراء قائلين إنَّه كان معلمًا بشريًا عظيمًا. إنَّه لم يترك هذا الخيار متاحًا لنا، بل لم يكن ينوي ذلك.[٦]

وهذه هي حجة لويس الشهيرة ذات "المعضلة الثلاثية": إما أنَّ يسوع كان مجنونًا، أو قائدًا حماسيًا شريرًا يبتز مشاعر الناس، أو كان بالضبط كما قال؛ ربنا وإلهنا. لقد قَبِلَ لويس أيضًا زعم يسوع المطلق والحصري.

عندما كنت أدرس الدراسات العليا، كان هارولد بلوم Harold Bloom قد نشر للتو كتابه "إغلاق العقل الأمريكي" *The Closing of the American Mind* (١٩٨٧). وقال إن الأمريكيين اعتنقوا النسبية لأنهم يرون أنها وسيلة للتسامح تجاه الآخرين، والأهم من ذلك، لأنهم يرون فيها انفتاحًا ذهنيًا، أي الانفتاح على معتقدات الديانات الأخرى. ولكن بلوم يقول إنَّه من المفارقات الساخرة أن النسبيين هم أقل الناس انفتاحًا. لقد أغلقوا عقولهم أمام إمكانية أن يكون هناك حق مطلق. فهم يرون أن كل الحق نسبي، وجميع الأديان لا تملك سوى جزء من الحق. وبالتالي، لا يملك أي دين أنْ يدّعي امتلاكه للحق المطلق.

6 C.S. Lewis, *Mere Christianity* (New York: HarperCollins ebooks, [1952] 2009), 52.

بلوم كان يكتب عن إغلاق العقل الأمريكي، لكنّه رُبَّما كان يتحدث عن إغلاق العقل المسيحي، على الأقل عقل المسيحيين الذين رفضوا عقيدة المسيح وحده واعتنقوا بدعة النسبية أو التعددية الدينية الحديثة.

قوة الإنجيل

أظن أن بعض المسيحيين لا يستريحون لعقيدة المسيح وحده، لأنهم ارتبكوا باهتمامات التعددية، فنسوا مدى قوة وتحرير الإنجيل، خصوصًا لمن لم يسمعوا أو يفهموا الرسالة.

وتحكي ميريام أديني Miriam Adeney قصة رائعة عن قوة الإنجيل في حياة امرأة. والدكتورة أديني روائية كَتَبَتْ "مملكة بلا حدود: القصة المكتومة عن المسيحية العالمية" *Kingdom without Borders: The Untold Story of Global Christianity*. وهي تروي قصة امرأة آسيوية (رُبَّما إندونيسية) غير مسيحية أحبت أنْ تتعرف على رسالة الإنجيل. لم تكن هناك أي كنيسة أو خادم أو صديق مسيحي يمكن أن يفسر لها هذه الرسالة. لكنها وقعت على الكتاب المقدس، وقررت أن تقرأ إنجيل يوحنا بنفسها. وامتلأت بمشاعر المهابة أمام جلال افتتاحية الإنجيل التي تعلن أن يسوع هو كلمةُ الله الذي صار جسدًا. واندهشت من قصة نيقوديموس، الرجل المتعلم الذي جاء ليلاً ليكتشف أنه يجب أن يولد مرة أخرى ليدخل ملكوت الله. وابتهجت لقراءة نص المرأة السامرية عند البئر التي علَّمها يسوع أن تطلب الماء الذي لا ينفد أبدًا، والذي ينبع من الداخل كينبوع من الماء الحي. ولكنها بعد ذلك قرأت قصة المرأة التي أمسكت في ذات الفعل، وأتوا بها أمام يسوع ليختبروا رد فعله. إلا أنها لم تستطع متابعة القراءة لأنها كانت تعلم، أو اعتقدت على الأقل أنّها تعلم، ما هو آت: أن المسيح سيكيل بمكيالين كما هو الحال من قديم الزمان، فيتجاهل خطيئة الرجل ويدين المرأة، فوضعت الكتاب المقدس جانبا فترة طويلة، ولكنها في نهاية المطاف ومن باب الفضول، أو رُبَّما بدافع من الروح القدس، عادت إليه وأنهت القصة. انحدرت الدموع من عينيها عندما قرأت أن يسوع لم يدن المرأة. بل قال: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلَا خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلًا بِحَجَرٍ! فتحدى بذلك هؤلاء الرجال المنافقين.

علينا أن نستنتج أن كل إنسان يحتاج إلى سماع رسالة الإنجيل لأن كل إنسان يحتاج إلى المخلص. ولا نقول إلى **مخلص**، بل إلى **المخلص**، ابنُ الله

الفريد الذي جاء إلى العالم، مملوءًا نعمةً وحقًا الذي فيه حياة، "الحياة التي تنير الناس."

الخاتمة

"المسيح وحده" رسالة غير عصرية لأنها تقول بوجود حق مطلق، وبأن يسوع هو الحق. علاوة على ذلك، حيث إنْ المسيحيين يدّعون امتلاك الحق في المسيح حصريًا، يجب أن تكون النظم العقائدية الأخرى باطلة أو ناقصة. إلا أنه لطالما كان من الصعب التمسك بمثل هذه الحقائق الحصرية. فالمسيحيون القدماء من خلفية يهودية أرادوا إضافة التهود إلى عقيدة المسيح وحده كضرورة للخلاص. وقد كانوا مخطئين، ورفضت الكنيسة الأولى هذا الموقف (أع ١٥). والكنيسة في القرون الوسطى أرادت أن تضيف إلى عقيدة المسيح وحدها القول بأن الإنسان يتعاون في الخلاص من خلال القيام بالأعمال الصالحة، والمشاركة في أسرار الكنيسة، وطلب وساطة الكهنة والقديسين. ولكن كبار المصلحين البروتستانت في القرن السادس عشر رفضوا وجهة النظر هذه، عائدين إلى الرأي الكتابي النقي بأن الخلاص يتوقّف على المسيح وحده. واليوم فإن العديد من المسيحيين يضعون جانبًا عقيدة "المسيح وحده" لأنها تبدو متعصبة ومتغطرسة في عالمنا التعددي. ولكننا إذا فعلنا ذلك، أنكرنا حقيقة أساسية من حقائق الإنجيل.

وقد قالها الرسول بطرس أمام السنهدرين وهو مهدّد بالسجن والتعذيب والموت بمنتهى الوضوح: "لَيْسَ بِأَحَدٍ غَيْرِهِ ٱلْخَلَاصُ. لِأَنْ لَيْسَ ٱسْمٌ آخَرُ تَحْتَ ٱلسَّمَاءِ، قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ، بِهِ يَنْبَغِي أَنْ نَخْلُصَ." (أع ٤: ١٢).